القصص الديني

الحلقة الأولى

قصص الأنبياء

قدرة الله

18

عبد الحميد جودة السحار

القصص الديني

الحلقة الأولى
قصص الأنبياء

قدرة الله

تأليف
عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١

مرَّ رجلٌ من الصَّالِحينَ من بنى إِسرائيلَ على قَرْيـةٍ مُخَرَّبَة ، ليسَ فيها أحدٌ حيّ ، لا من الناس ، ولا مـنَ الحيوان .. فقال : كيفَ يُحْيِي اللّـه هـذه القريـةَ بعـدَ موتِها ؟

عندئـذٍ أماتَـه اللّـه ، وأمـاتَ حِمـارَه الـذى كـانَ يَرْكَبُه ، وظلَّ الرَّجلُ ميِّتًا هو وحماره مائةَ سنة .

ثم أحياهُ اللّه وسأَلَه : كمْ من الزَّمَنِ لَبِثْتَ هُنا ؟

قال : يومًا أو بعضَ يوْم .

قال له اللّه : بل لبِثْتَ مائةَ عام .. ومع ذلـك فإنَّ طَعامَك الـذى كـانَ معَـك وشـرابَك لم يَفْسُـدْ ولم يتعفَّـنْ . ولكـى تتيَقَّـنَ أَنَّ لـك مائـةَ سنة ، انْظُـرْ إلى حِمارِك .

ونظر الرجلُ إلى حماره ، فرآه عِظامًا بالية .

قال له اللّه : الآن سأُحْيي لك هذا الْحِمارَ . فانظرْ كيفَ تَدِبُّ الحياةُ في هذهِ العِظام ، وكيف تُكْسَى باللّحم ، وقد أحْيَيتُك بعدَ موتِك ، لتكونَ علامةً للناسِ على قُدْرَةِ اللّه .

واستمرَّ الرجلُ ينظرُ إلى الحمار والحياةُ تَعودُ إليه ، وعظْمُهُ يُكْسَى باللّحم الحيّ ، متعجبا من صنع اللّه وقدرته ، حتى إذا نهض الْحِمارُ واقفا كما كان ، قال الرجل : يا ربّ ، أَعْلَمُ أنك على كل شيء قدير .

٢

كان قارونُ من قومِ موسى ، وقد أَعْطاهُ اللّه أموالا عظيمة ، إلى حدٍّ أنَّ مفاتيحَ الكُنوزِ التى يمِلكُها لم تكنْ جماعةٌ قويةٌ من الرِّجالِ تستطيعُ حَمْلَها ونَقْلَها .

ولما رأىَ قارونُ أنّه يَمْلِكُ هذِهِ الأَموالَ العظيمة ، تكبَّر على قوْمِهِ وطغَى ، وصار رجُلاً ظالمًا لا يَخافُ اللَّه .

فقال له العقلاءُ من قومه : لا تغْتَرَّ بالدُّنْيا هَكذا ، واعْمَلْ أعمالا صالِحةً تَنْفَعْك عندَ اللَّه .

قال : هل تُريدُونَ منى ألا أتمتّعَ بمالى ؟

قالوا له : تَمَتّعْ ولا تنسَ نصيبَك من الدُّنْيا . ولكن تذكّرْ أنَّ اللّه هو الذى أعطاكَ هذا المالَ كله ، لا لتتمتّعَ به وحدَك ، ولكنْ لِتعْمَلَ أعمالاً صالحة ، وتساعِدَ الفقراءَ والمرضَى ؛ وتكون رجُلا صالِحًا رحيمًا متواضعا .

قال لهم : لقد جَمَعْتُ هذا المالَ بعقلى وعلمِى . فليسَ لأَحدٍ أن يُحاسِبَنى عليه ، أو يَطْلُبَ شيئًا منه .

وفى يوم لبسَ قارونُ ثيابه المزرْكَشة ، المزيَّنَة بالذّهبِ والجواهِر ، وركِبَ عربته التى تجرُّها الخيْلُ

العظيمة ، وخرج على قومِه فى زينَتِه .

« قال الذينَ يُريدُون الحياةَ الدنيا : يا ليتَ لنا مثلَ ما أُوتِيَ قارون ، إنّه لذو حظٍّ عظيم » .

ونَسُوا أنَّ قارون مع غِناه رجلٌ ظالِمٌ مغْرور .

وقال المؤمنونَ باللّه : « ويْلَكم ! ثوابُ اللّه خيرٌ لمن آمنَ وعَمِل صالِحًا » . فلا تَتَمَنَّوا أنْ تكونوا مثلَ قارون ، ولكنْ تمَنَّوْا أن يُعطِيَكم اللّه من فَضْلِه فتعْمَلوا أعمالا طيبة صالحة ، وتَنْفَعوا الناسَ بأمْوالِكم ، ولا تَكْنِزُوها كما يَصْنَعُ قارون .

* * *

وباتَ الناسُ وأصْبَحُوا وإذا هُمْ يَجدُون قصرَ قارونَ مَدْكُوكًا غائصًا فى الأرض ، بكل ما فيه من مخازِنِ المال ، ومن الفِراشِ الغالى ، والأوانىّ المُذْهَبة ، وأدواتِ الزينةَ والجواهِر .. وكلُّ ما فيهِ

ومن فيه .

عند ذلك وقف الذينَ كانوا يتمنّون أن يُصْبِحُوا مثلَه يقولون :

ـ لقد تمنّيْنا أنْ نكونَ مثلَ قارون . فأيْنَ هو قارون؟ لقد خَسَفَ اللّه به الأَرض ، وبقصرِهِ وأموالِه وجواهِرِه . فالحمدُ لله أنّنا لم نَكُنْ مِثْلَه . وإلا خَسَفَ اللّه بنا الأرضَ مثْلَه . إن اللّه لا يحبُّ المتكبِّرين .

٣

كان لرجلٍ صالحٍ حديقةُ فاكهة ، وكان يَنْتَظِرُ حتى تُثْمِر ، وتَنْضَجَ ثِمارُها ، ثم يدعُوَ الفقراءَ إليها ، ويُقطِّعَ الثمارَ ويُعْطِيَهُم من كلِّ نوعٍ منها .

وكان اللّه يُبارِكُ لهُ في حديقَتِه ، فتطرَحُ ثمرا كثيرا لذيذا . وكلّما زادَ ما يُعْطِيه الفقراءَ من الحديقة ، زادَ

ثمرُها فى السنةِ التالية .

وعاشَ الرَّجُلُ سعيدًا بهذَا العملِ الذى يَعْمَلُه حتى مات .

وورِثَ الحديقةَ أبناءُ هذا الرجل ، فقالوا لأنْفُسِهم : لماذا نُعْطِى ثمارَ حديقَتِنا للفقراء ؟ إنها حديقَتُنا نحن لا حديقَتُهم . فمنذُ هَذا العام لن نُعْطِىَ من ثمارِها أحدا .

وكان فيهم ولدٌ عاقلٌ صالح ، فقال لهم : اتّقوا اللّه ولا تَقْطَعوا عادَةَ أبيكم الطيِّبة ، فإن اللّه يُعْطيكُم بدلَ ما تُعْطُونه الفُقَراء .

قال الباقون : لا يا سيدى ! فإنّ الذى يُعْطيه اللّه لنا هو حقُّنا نحن ، وليس حقَّ هؤلاء الناس الأجانب . فإذا أخَذُوا منه شيئا فإنَّ نصيبَنا يَنْقُص . واللّه لن نُعْطِىَ منها فى هذا العام أحدا .

وعندما جاء الليلُ أرسل اللّه على الحديقةِ عاصفَةً

مُحْرِقَـةٍ ، أحرَقَتْهـا وتركَتْهـا سـوداءَ كـالْفَحْم ، وأصحابُها لا يَعْلَمون .

أما هُمْ فاتّفَقُوا على أنْ يَذْهَبوا فى وجْهِ الفَجْر لِيَقْطَعُوا الثِّمار ، ولا يُخْبرُوا أحدًا من الفُقَراء والمساكين . وقُبيلَ الصُبْحِ نادَى بعضُهم بعضًا سرًّا : تعالَوْا . تعالَوا . ومشَوْا على أطْرافِ أصابِعِهم حتى لا يُحِسَّ بهم أحد ، وكتَمُوا أنْفاسَهم وهُمْ يَمْشُونَ سِرّا ، ووصَّى بعضُهم بعضًا بألا يتكلَّمَ أو يتنفسَ أو يَكُحَّ أو يَتَنَحْنَح ، حتى لا يُحِسَّ بهم أحد .

وفتحوا البابَ ودخلُوا ، ثم أغْلَقُوه عليْهم بهدوء .

وقالوا : الحمدُ لله لم يَشْعُرْ بنا أحدٌ من المساكين .

ولكنّهمْ حينَ رأَوُا الأشجارَ وجَدوها مَحْروقةً مسوَدّة ، وليسَ فيها ثمر . قالوا : أوْهِ ! لقد ضلَلْنا وتُهْنا عن حديقَتِنا بسببِ الظّلام . إن هذه ليست

حديقَتنا . فماذا نَصْنَع ؟

قال الولدُ الطيِّب : بل إنها حديقَتُكُم عَيْنُها ! وقد أحرَقَها اللّه لكُم لأنكُم أردْتُم حِرْمانَ المساكين منها .

فاسوَدَّت وجوهُهم من الْحُزْنِ والأَلم ، وراحَ كلٌّ منْهُم يَلومُ أخاه ، ويقول له : أنتَ الذى أشرت علينا بهذِهِ الفكْرة الملعُونَة ، فيتبرَّأُ كُلُّ واحدٍ من التُهْمَةِ ويقولُ للآخر : بل أنتَ فعلت .

وفى النهاية قال لَهم أخُوهُم الطيِّب : لا فائدةَ الآن من هَذا الكلام . استغْفِروا ربَّكُم لعلّه يعفُو عنكم ويرحَمُكم .. « قالوا يا ويلنا ! إنا كنا طاغين . عسى ربنا أن يُبْدِلَنا خيرا منها ، إنّا إلى ربنا راغبون » .

٤

كانت قبيلَةُ سَبأ تَسْكُنُ فى بلادِ اليَمن ، حيثُ تَنْزل الأمطارُ الكثيرة ، وتَضيعُ بلا فائِدَة .

فأقاموا خزَّانًا ضَخْمًا للمياهِ بين جَبَلَيْن ، وأقاموا عليه السُّدُود ، ليَخْزُنوا فيه مياهَ الأمطارِ حين تنزل ، ثم ينتفِعُوا بها طولَ السَّنة .

وبذلك أصبَحَتْ هذه الجهةُ خِصْبَةً عظيمةَ العُمْران ، وامتَدَّتِ الحدائقُ عن اليمينِ وعن الشِّمال ، فيها من كل الثّمرات ، ومن كلِّ الأنواع ، سهلةُ الرىّ ، جميلة المنْظر .

ونشأتْ بلادٌ كثيرةٌ متقاربة ، يُسافِرُ إليها المسافِرون وهم مُطْمَئِنُّون ، لا يَعْتَدِى عليهم أحدٌ فى الطريق ، لأَن البلادَ قريب بعضها من بعض ، ومعمورة ، والمرورُ بينها متواصل ، فلا يستطيعُ

اللُّصوصُ وقُطَّاعُ الطريـق أن يُؤْذوا المارَّة أو يعتـدُوا على أموالِهم .

وكانت هذه البلادُ متحضرة ، وغنية ، وراقية .

ولكـن النعمـةَ التـى كـان فيهـا هـؤلاءِ النـاسُ قـد جعَلَتْهُم ينْسَون أن يَشْكُروا اللّه عليهـا ، وأن يقْنَعـوا بهـا ويَرْضَـوا ، فقـالوا : يـا ربّ ، إنَّ هـذه البـلادَ المُتَقارِبَةَ تحرِمنا لـذَّةَ السفَرِ الطويـل ، ولـو كـانت متباعدةً لكان السفرُ بينهـا لذيـذا ومُمْتِعـا ! أمـا هـذا التقاربُ فهو مُمِلٌّ مُسئم .

قالوا هذا الكلامَ بـدلا مـن أن يشـكُروا اللّـه عا النِّعَمِ العظيمَةِ التى أعْطاهُمْ إياها ، فجازاهُم اللّه بـ حطَّمَ السُّدود التى تحجُزُ وراءَها مياهَ الخزانِ العظي فصـارت سُيُولا أغرَقَـتْ هـذه البـلاد ، كالطوفـاد فهربَ الناسُ منها مفزوعـين ، وتفرَّقُـوا فـى الشِّـم

من بلادِ العرب ، وتحولت تلك المدنُ إلى جهاتٍ صَحْراوِيَّةٍ مُجْدِبَة ، لعدم وجودِ الماء . وبدلاً من أن تنْبُتَ فيها الحدائقُ والجناين المثمرة بأحلى الفواكِه ، صارت لا تُنْبتُ إلا أشجارا مُرَّةَ الثِّمار ، أو مملوءَة بالشَّوْكِ . وقليلاً من أشْجارِ النَّبْق .

وذلك جزاءُ من يَكْفُرُ بنِعْمة اللّه ، ولا يَشْكُرُه على ما أعْطاه .

٥

كان رجُلان صَديقَيْن ، وكان أَحدُهما غَنيًّا كبيرَ الثَّروَة ، وقد أَعطاهُ اللّه حديقَتَيْنِ كَبيرَتَيْن مِنْ كُرومِ العِنَب ، بينَهُما حقولٌ واسعة ، يُرْويها نهرٌ دائمُ الْجَريان .

وقد أَثْمَرَتِ الحديقتان ثمرًا جيِّدًا كاملا ، فكانت

عناقيدُ العنب تتدلّى كأنها اللآلئ البرّاقة عندما تنعكِسُ أشعّةُ الشّمْسِ عليها ، وكان له كذلك أولادٌ كثيرون أصحاءُ الأجسام جَميلو الوجوه .

وفى يوم دَعا صاحِبَه ليرى الحدائقَ والْحُقول ، وليقضيَا معًا يوما سعيدا ، ونزهةً لطيفة . وبينما هُما يتنزهان بين الحديقتين ، تلفتَ الغَنىُّ إلى مزارعه الواسعة ، وامتلأ قلبُه إعجابا بها ، وامتلأت نفسُه غرورًا بهذا الثراء العظيم ؛ فنَسِىَ أنَّ اللّه هو الذى أَنْعَمَ عليه بهذه النِّعَمِ الجليلة ، وتحرَّك لسانُه .

« فقال لصاحِبه وهُو يحاوِرُه : أنا أكثرُ منْك مالاً وأعزُّ نَفَرا » (يعنى لى أهل أكثر من أهلك) . ثم دخلَ إحدى الحديقَتيْن فرأىَ الثّمارَ الناضِجَةَ فيها ، فانتفخَ ونفَشَ وأخذَه الغُرور . فقال : « ما أظنُّ أن تبيدَ هذه أبدًا » (ما أظنها أنها تهلِك أو تفنى » ،

« وما أظنُّ أن الساعةَ قائمة » (أى ما أظن أن القيامةَ ستقوم) ، « ولئنْ رُدِدْتُ إلى رَبِّى لأجدَنَّ خيرًا منها مُنْقَلَبا » (يعنى : حتى لو قامتِ القيامة ، فإن اللّه سيُعطينى أحسنَ من هذِه الحديقة ، لأننى غنىّ ، فلا بد أن اللّه سيعطينى بسبب غناى !) .

عند ذلك غضِبَ صاحِبه ـ وكان رجلاً مؤْمِنًا باللّه ، ويعتبر نفسه أحسنَ وأفضلَ من صاحِبه الغنىِّ الذى لا يعْرِفُ اللّه ـ غَضِبَ وقال لصاحبه :

ـ أكفْرتَ بالّذى خلقَك من تراب ، وهُوَ الذى جعلك فى بطْنِ أمِّك جنينًا ثم سوّاكَ رجُلا ..

ثم قال له : أما أنا فإننى مؤْمِنٌ باللّه ولا أُشْرِكُ به أحدا ، وكان يجب عليك عندما رأيتَ حديقَتك ، أن تتذكّرَ أن اللّه هو الذى أنعمَ بها عليك ، وأنا أقلُّ منكَ أولادًا وأموالا ، ولكنَّ أمَلى فى اللّه عظيم ، أن

يُعْطِيَنى خيرًا مـن جنّتـك . ومـا دُمْـتَ لم تشْـكرِ اللّـه على ما أعطاك فاللّـه سيأخذُ منـكَ نعمتـه ، ويُهلِـكُ هـذه الحدائـق والـزروع ، ولعلـه يُرْسـلُ عليهـا وبـاءً يُهْلِكُها أو يُصْبِحُ ماؤُها غوْرا فلن تستطيعَ له طَلَبا .

ولم تمضِ ليلةٌ حتى تحققَ ما قالَه الرَّجُلُ المُؤْمِن ، غارَ ماؤُها فى الأرضِ وجفَّ ، وسقطت الثمارُ ، ومـاتتِ الأشجار .

وذهبَ صاحِبُها المغترُّ لِيرَاها ، فسـقطَ قلبُـه ، وهـو ينظرُ إليها فيجدُها خرابـا ؛ ووقـفَ يُقَلِّـبُ كَفَّيْـهِ مـن الأسَفِ على ضَياعِ ما أنفقه فيها من مالٍ ومن تعب ، وهى محطمةٌ ذابلة . « ويقول : يا ليْتنى لم أُشركْ بِربِّى أحدا » .